الفصل الثانى

أبوحيّان التوحيدى فى عصره

حياة أبى حيان التوحيدى

١ – مولده :

فى هذه الفترة من الزمن عاش أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ، وتكاد حياته تكون مجهولة ، إذ لم يصلنا من أخباره إلا النزر اليسير ، حتى إن ياقوتًا الرومى ، وهو المعروف بسعة الاطلاع والبحث والتنقيب عجب من أن أحداً « لم يذكر التوحيدى فى كتاب ، ولا دبّجه ضمن خطاب »[١] . فلم نعرف شيئًا عن أصله ونشأته ومكان ولادته ، حتى إن آراء المؤرخين – ومنهم ياقوت – فى هذا السبيل جدُّ متضاربة فمن قائل إنه بغدادى ، ومن قائل إنه شيرازى أو نيسابورى ، أو واسطى[٢] ، ويقول الذهبى إنه « نزيل نواحى فارس »[٣] دون تعيين الزمان والمكان . وإذا ما تقصينا جميع ما قيل عن التوحيدى ، وأحصينا ما تفرّق من أخباره أمكننا القول إنه ولد فى بغداد حوالى سنة ٣١٠ هـ من أبوين فقيرين ، إذ كان أبوه يبيع نوعًا من التمر يقال له التوحيد ، ويبدو أن التوحيدى فقد أبويه فعاش يتيمًا فى كفالة عمه الذى كان يبغضه ويسىء معاملته[٤] . وقد استنتجنا تاريخ ولادته من مصدرين : أولهما : كتاب أرسله التوحيدى نفسه إلى القاضى أبى سهل بن محمد سنة ٤٠٠ هـ يقول فيه إنه بلغ عشْرَ التسعين[٥] وثانيهما : « كتاب المقابسات » الذى ألفه سنة ٣٦٠ هـ وكان عمره

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٥/٥ .

(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/٥ ، « روضات الجنات » : ٤/٢٠٥ ، « مفتاح السعادة » : ١/١٨٨ ، « لسان الميزان » : ٦/٣٦٩ .

(٣) « ميزان الاعتدال » : ٣/٣٥٥ .

(٤) « البصائر والذخائر » : ٢/٤٧٥ .

(٥) « معجم الأدباء » : ١٥/٢٠ .

يومذاك خمسين عامًا بدليل قوله : « وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة ، وقد أضاع أكثرها ، وقصر فى باقيها »[١] .

٢- نشأته وشيوخه :

يقول مرغليوث فى « دائرة المعارف الإسلامية » إن التوحيدى صرف القسم الأكبر من حياته فى بغداد ، حيث درس النحو على أبى سعيد السيرافى (٢٤٨ — ٣٦٧) ؛ ويظهر لنا أن أثر أبى سعيد فى تلميذه يتعدى النحو إلى غيره من العلوم والمعارف والأفكار والآراء ، فأبو سعيد عالم فذّ شارك بكافة أنواع المعرفة فى عصره مشاركة واسعة ومتينة ، فقد « أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة ، فما وُجدَ له خطأ ، ولا عثر له على زلّة »[٢] ، وكان يدرس القرآن والقراآت ، وعلوم القرآن والنحو والفقه والفرائض والحساب والكلام والبلاغة والشعر والعروض والقوافى ، حتى تعدت شهرته بغداد إلى أطراف البلاد ، وصار يستفتى فى عدة قضايا دينية ولغوية وأدبية ، وكان أعلم الناس بنحو البصريين ، وهو الذى يتصدى لشرح كتاب سيبويه ، وبسط علم النحو للناس حتى قال ابنه يوسف : « وضع أبى النحو فى المزابل فى الإقناع »[٣] يريد أنه سهله حتى لا يحتاج إلى مفسّر . وكان السيرافى على مذهب المعتزلة « ولم يظهر منه شىء »[٤] ، وكان على جانب عظيم من التدين والورع والصلاح والتقوى وعلوّ النفس ، والتعفف عن الدنايا . وصفه تلميذه التوحيدى فقال : « . . . كان عابداً ، خاشعًا ، له دأب بالنهار من القراءة والخشوع ، وورد بالليل من القيام والخضوع ، صام أربعين سنة الدهر كله »[٥] . ويقول أبو سعيد المدائنى : « ما قرئ على أبى سعيد ذكر الموت والقبر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار والوعد والوعيد والعقاب والمجازاة والثواب والإنذار والإعذار وذم الدنيا بأهلها

---

(١) « المقابسات » : ٣١ .
(٢) « معجم الأدباء » : ٨/١٥٠ .
(٣) « معجم الأدباء » : ٨/١٤٩ ، « بغية الوعاة » : ٢٢٢ .
(٤) وفيات الأعيان » : ١/١٣٠ .
(٥) « معجم الأدباء » : ٨/١٧٢ .

وتغيرها على أبنائها إلا وبكى منها وجزع عندها، وربما نغص عليه يومه وليلته، وامتنع من عاداته فى الأكل والشرب »[١] .

إن من يتدبر نفسية التوحيدى، ويطلع على آرائه الأدبية وأفكاره الفلسفية يظهر له انعكاس آراء السيرافى وأفكاره فى عقلية تلميذه ؛ ويندر أن نجد أستاذاً ومريداً تشابها فى الفكر والعاطفة، فخضع الثانى لشخصية الأول القوية ، كما نجد ذلك عند السيرافى والتوحيدى ، فأبو سعيد فى نظر تلميذه « عالم العالم ، وشيخ الدنيا، ومقنع أهل الأرض »[٢] . ويعتقد لويس ماسينيون أن أبا سعيد السيرافى « علم تلميذه فى سن مبكرة أسرار علم التصوف »[٣] حتى صار التوحيدى شيخاً فى الصوفية ، كما يقول ياقوت . وإن من يتتبع دراسة عناصر هذا التأثير وبواعثه يجد أن التوحيدى مدين للسيرافى بنشأته العلمية وتهذيبه الروحى ، ونجد هذا التأثير أبين ما يكون فى نزعتى التقشف والتوكل اللتين تعدان من أسس المثل الصوفية .

وهناك أستاذ آخر ، كان له أثر فى تكييف شخصية التوحيدى الفكرية وهو علىّ بن عيسى الرُّمّانى (٢٩٦ — ٣٨٤) ، وهو من أئمة اللغة والأدب « جمع بين علم الكلام والعربية »[٤] ، ويعدّ فى « طبقة أبى على الفارسى وأبى سعيد السيرافى »[٥] وكان مشاركاً فى جميع العلوم ، نستدل على ذلك من الثبت الذى أورده ياقوت لتصانيفه المتنوعة ، إلا أن الرُّمانى كان أميل للنحو والمنطق منه إلى بقية العلوم، حتى إنه كان « يمزج النحو بالمنطق »[٦] فيبلغ حدّ الغموض والتعمية ، حتى قال أبو على الفارسى عنه : « إنْ كان النحو ما يقول الرُّمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شىء »[٧] .

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٧٢/٨ .

(٢) « المقابسات » : ٢٣ .

(٣) Recueil des textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam p. 86.

(٤) « وفيات الأعيان » : ١٣١/١ .

(٥) « معجم الأدباء » : ٧٦/١٤ .

(٦) « بغية الوعاة » : ٢٢٢ .

(٧) « معجم الأدباء » : ٧٥/١٤ .

وكان يقال : النحويون فى زماننا ثلاثة : واحد لا يُفهم كلامه وهو الرمانى ، وواحد يُفهم بعض كلامه وهو أبو على الفارسى ، وواحد يُفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيراف »[١] ، ولعل هذا الغموض ناتج عن ميل الرمانى للانفراد بطريقة تخالف « الطريقة المتبعة من علم واضع المنطق »[٢] . وإذا استثنينا النحو نجد أن للرمانى أثراً فى تخريج تلميذه التوحيدى فى علم الكلام ، وتنشئته من الناحية العقلية والمنطقية ؛ فقد كان الرمانى متكلماً على طريقة المعتزلة « لم ير قطّ مثله علماً بالنحو ، وغزارةً فى الكلام ، وبصراً بالمقالات وإيضاحاً للمشكل مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة »[٣] .

وتلقى التوحيدى الفقه الشافعى على القاضى أبى حامد المرورذى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ ، ويعدّه ابن خلكان من أئمة الفقه الذى « لا يشق غباره فيه »[٤] ، وكان التوحيدى كثير الملازمة لمجالس أبى حامد ، والنقل عنه والرواية لأخباره كما يدل على ذلك كتاب « البصائر والذخائر » ، وقد علل التوحيدى تعلقه بأستاذه بقوله : « وإنما أولع بذكر ما يقوله هذا الرجل لأنه أنبل من شاهدته فى عمرى ، وكان بحراً يتدفق حفظاً للسير ، وقياماً بالأخبار ، واستنباطاً للمعانى ، وثباتاً على الجدل ، وصبراً على الخصام »[٥] .

ودرس الفقه الشافعى على أبى بكر محمد بن على القفال بن إسماعيل الشاشى المتوفى سنة ٣٦٥ ، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء ، وكان « فقيهاً محدثاً أصولياً لغوياً شاعراً »[٦] ، ودرس الفقه الشافعى على القاضى أبى الفرج المعافى بن زكريا النهروانى (٣٠٥ — ٣٩٠) وكان أعلم الناس بفقه مذهب الطبرى ونصرته والدفاع عنه حتى قيل له الجريرى ، وكان أبو الفرج

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٤/٧٥ .
(٢) « الإمتاع » : ١/١٣٣ .
(٣) « وفيات الأعيان » : ١/١٨ .
(٤) « وفيات الأعيان » : ١/١٨ .
(٥) « البصائر والذخائر » (مخطوط) .
(٦) « أبجد العلوم » : ٣/٢٩٥ .

فقيهاً، أديباً، شاعراً له « أنسة بسائر العلوم »[١] وكان أهل زمانه يقولون عنه : إذا حضر القاضي أبو الفرج ، فقد حضرت العلوم كلها ، وكان « في نهاية الذكاء ، وحسن الحفظ ، وسرعة الخاطر في الجوابات »[٢] .

ودرس التوحيدي الفلسفة والمنطق على عالمين عظيمين انتهت إليهما رياسة أصحاب هذين العلمين وهما يحيى بن عدىّ المتوفى سنة ٣٦٤ هـ وأبو سليمان المنطقي السجستاني المتوفى بعد عام ٣٩١ هـ .

أما أبو زكريا يحيى بن عدى ، فهو فيلسوف نصراني من أشهر تلامذة أبي بشر متّى بن يونس القنائي والفيلسوف أبي نصر الفارابي ، ومن المتضلعين في علم المنطق حتى انتهت إليه « رياسة أهل المنطق في زمانه »[٣] ، وكانت فعالية يحيى بن عدى منصرفة إلى ناحيتين : ترجمة كتب أرسطو من السريانية إلى العربية والتوفر على دراستها ، وتلخيص تصانيف أستاذه الفارابي وشرح فلسفته ، وكان ميالاً للجدل « يعتمد على المنطق في إثبات الحقائق والعقائد »[٤] ونحن نعلم أن التوحيدي وإخوانه درسوا الفلسفة اليونانية في الكتب المترجمة ، ولا شك في أنه أفاد من دروس يحيى بن عدى ، والتي نجد وصفها في كتاب « المقابسات » .

وأما أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني فهو تلميذ أبي بشر متى ابن يونس القنائي ويحيى بن عدى ، ومن أعاظم علماء المنطق ، والمطلعين على دقائقه وأسراره ، ومصنف كتاب « صوان الحكمة » ، وكان أبو سليمان أعور ، وبه وَضَح ، فكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله فلا يأتيه إلا مستفيد أو طالب ، فقصده الرؤساء والأجلاء ، وكان علماء عصره يجتمعون حوله لمناظرته حتى غدا منزله « مقيلاً لأهل العلوم القديمة »[٥] وله « نظر في الأدب والشعر »[٦] ، ويظهر أن التوحيدي كان كثير الملازمة لأستاذه السجستاني

---

(١) « وفيات الأعيان » : ٣/١٠٠ ، « معجم الأدباء » : ١٩/١٥٣ .

(٢) « الفهرست » : ٣٢٩ .

(٣) « تاريخ الحكماء » : ٣٦١ .

(٤) A. Périer : Yahya ben Adi. Un philosophe chrétien du Xe siécle p. 84.

(٥) « طبقات الأطباء » : ١/٣٢١ .

(٦) « تاريخ الحكماء » : ١٨٥ .

حتى عدّه القفطي « أحد أصحابه المعتصمين به »[١] وعدّه ابن سعدان « جاره ومعاشره ولصيقه وملازمه وقافي خطوه وأثره ، وحافظ غاية خبره »[٢] ، ولا أدلّ على صحة هذا القول من أن أغلب المحاورات والمناظرات التي ألف التوحيدي منها كتاب « المقابسات » هي من أحاديث ومذكرات وآراء أبي سليمان السجستاني . وقد بلغ من شدة ملازمته لأبي سليمان أن توهم القفطي بأن التوحيدي كان « يغشى مجالس الرؤساء ، ويطلع على الأخبار لينقلها إلى أستاذه ، وأنه لأجله ألّف كتاب " الإمتاع والمؤانسة " »[٣] .

وهناك شيوخ آخرون قرأ عليهم التوحيدي كان أثرهم فيه أقل وضوحاً ممن تقدم ذكرهم أمثال أبي محمد جعفر الخُلدي وكان « رئيساً من رؤساء المتصوفة وورعاً زاهداً »[٤] ، وأبي الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن سمعون (٣٠٠ — ٣٨٧) وكان وحيد عصره في الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الإشارة ، ولطف العبارة[٥] ، وكان يقال له « الناطق بالحكمة »[٦] ، وغيرهما .

وهكذا فقد أتيح للتوحيدي أن يتصل بأكبر علماء عصره ، ومفكري زمانه مما أكسبه ثقافة موسوعية نرى أثرها فيما وصل إلينا من آثاره .

٣ — اتصاله بالمهلبي :

اتصل التوحيدي في ظروف مجهولة بالوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي (٢٩١ — ٣٥٢) ، وهو الذي تولى الوزارة لمعز الدولة سنة ٣٣٩ . والوزير المهلبي شخصية قوية لعبت دوراً في العصر البويهي ، فقد كان « جامعاً لأدوات الرياسة »[٧] وهي مزية نادرة في عصر سادت فيه الفوضى ، وضاعت

---

(١) « الإمتاع » : ١/٢٩ .
(٢) « تاريخ الحكماء » : ١٨٦ .
(٣) « تاريخ الحكماء » : ١٨٦ .
(٤) « الفهرست » : ٢٦٠ .
(٥) « وفيات الأعيان » : ١/٤٩٢ .
(٦) « المنتظم » : ٧/١٩٨ .
(٧) « تجارب الأمم » : ٢/١٣٢ — ١٤٥ .

مقاييس الرياسات ، وكان « مع ذلك حسن الإنباء عن نفسه ، فصيحاً ، مهيباً ، سخياً ، شجاعاً ، لا يتحرك لشيء من نوائب الدهر ، أديباً يفصح بالفارسية ، فتلافى أكثر ما دَرَسَ من رسوم الكتابة واستدرك كثيراً من العمارات ، وأثار وجوه الأموال من مواضعها فحسنت آثاره»(١) وإلى جانب هذه المآثر الإدارية والعمرانية فقد عرف المهلبي بعطفه على « أهل الأدب والعلوم فأحيا ما كان درس ومات من ذكرهم ونوّه ، ورغب الناس بذلك فى معاودة ما أهمل منها » (٢) ، ويقول ياقوت يصف حسن معشره : « كان أبو محمد يناصف العشرة أوقات خلوته ، ويبسطنا فى المزح إلى أبعد غاية » (٣) وكان « طيب الحديث ، وأكثره مذاكرةً بالأدب وضروب الحديث لكثرة من يجمعهم من العلماء والكتاب والندماء » (٤) وكان الصابى يقول : «كان أبو محمد يخاطب بالأستاذية »(٥) وفى الجملة أن المهلبي كان براً بالأدب وأهله ، وأنه جمع حوله — تبعاً لتقاليد وزراء بنى بويه — جماعات من العلماء والفضلاء حتى قيل إنه « مات بموته عن الكتاب الكرمُ والفضلُ » (٦) .

ولكن إلى أى حدّ كانت صلة التوحيدى به حتى غضب عليه ونفاه عن بغداد لسوء عقيدته كما يقول الذهبى (٧) ؟ لا شك فى أن صلته بالوزير كانت قصيرة الأمد ، فلئن صحّ أن المهلبي كان عطوفاً على الأدباء وأهل العلم ، فإن وطأته كانت شديدة على أصحاب العقائد والجدل والبدع ، فقد « فعل الأفاعيل بالعباسيين أعداء العلويين » (٨) وأخباره فى البعد عن روح التسامح واضطهاد القضاة وأرباب البدع مشهورة (٩) ، وهذا ما يعلل إقدامه على نفى

(١ ، ٢) « تجارب الأمم » : ٢/١٢٣ — ١٢٥ .
(٣ ، ٤) « معجم الأدباء » : ٩/١٣٣ — ١٤٣ .
(٥) « معجم الأدباء » : ٩/١٤٦ . (٦) «تجارب الأمم» : ٢/١٩٨ .
(٧) « ميزان الاعتدال » : ٣/٣٥٥ . (٨) « تحفة الأمراء » : ٣٢١ — ٣٢٢ .
(٩) كما فعل بالقاضى أبى الحسن محمد صالح الهاشمى . قال مسكويه : اطلع أبو محمد المهلبى على قوم من التناسخية فيهم شاب يزعم أن روح على رضى الله عنه انتقلت إليه ، وفيهم امرأة تزعم أن روح فاطمة عليها السلام انتقلت إليها ، وفيهم آخر يدعى أنه جبريل ، فضربوا ، فتعذروا بالانتماء إلى أهل البيت ، فأمر معز الدولة بإطلاقهم لميله إلى أهل البيت ، وهذا كان من أفعاله المدونة . (تجارب الأمم : ٢/١٤٧) .

التوحيدى عدو الشيعة والرافضة من بغداد ، وهذا السبب نفسه حدا فيما بعد بالصاحب بن عباد وابن العميد إلى إبعاد التوحيدى عن بلاطهما ، وإلى ما تقدم يمكن إضافة الآراء المنافية لقواعد الإسلام التى أوردها التوحيدى فى كتابه « الحج العقلى » والتى أدّت إلى اتهامه « بسوء العقيدة والزندقة والانحلال » [١] .

والظاهر أن التوحيدى عاش مدة طويلة منعزلا ، يعانى آلام البؤس والحرمان وكان يحترف — على كره منه — مهنة الوراقة ، وهى مهنة شاقة فى القرن الرابع تعاطاها عدة أدباء وفلاسفة أمثال ابن النديم وأبى سعيد السيرافى ويحيى بن عدى وغيرهم ، وكان العالم إذا لم يجد ما يقتات به اشتغل بنسخ الكتب وتجليدها ، إلا أن التوحيدى لم تكن لتطيب نفسه بهذه الحرفة فقد أفضى إلى صديقه فى البأساء أبى بكر القومسى بشكيته المرة قائلاً : « لقد استولى علىّ الحُرْف [٢] وتمكن منى نكدُ الزمان ، إلى الحد الذى لا أسترزق مع صحة نقلى ، وتقييد خطى ، وتزويق نسخى ، وسلامته من التصحيف والتحريف ، بمثل ما يسترزق البليد ، الذى ينسخ النسخ ، ويمسخ الأصل والفرع » [٣] . وقد سخط التوحيدى على هذه المهنة التى فيها « ذهاب العمر والبصر » [٤] لضؤولة موردها ، وقلة جدواها ، حتى غدت إحدى المنغصات التى أفسدت مزاجه ، وعكرت عليه صفو حياته .

٤ — رحيله إلى ابن العميد :

فى هذه الفترة من الزمن عزم التوحيدى على الرحيل إلى الرى للوقوف ببابب ابن العميد ، الذى ملأت شهرته الآفاق وغدت داره محط آمال روّاد الثروة والجاه من المشتغلين بالآداب والعلم . وابن العميد كما يقول ابن مسكويه ، خازن كتبه « أوفى من الفضائل والمحاسن ما بهر به أهل زمانه ، حتى أذعن له العدو ، وسلّم

(١) « ميزان الاعتدال » : ٣٥٥/٣ .
(٢) الحرف : قلة الحظ ، ورجل محارف : منقوص الحظ لا ينمى له مال .
(٣) « معجم الأدباء » : ١٣/١٥ .
(٤) « معجم الأدباء » : ٢٨/١٥ .

الحسود ، ولم يزاحمه أحد فى المعانى التى اجتمعت له . . . فمن ذلك أنه كان أكتب أهل عصره ... وكذلك شعره الذى جدّ فيه وهزل ، فإنه فى أعلى درجات الشعر وأرفع منازله . فأما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة ، ثم إذا ترك هذه العلوم ، وأخذ فى الهندسة والتعاليم فلم يكن يدانيه فيها أحد . فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات خاصة ، فما جسر أحد فى زمانه أن يدّعيها بحضرته ، إلاّ أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم دون المذاكرة ، ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التى لا يدّعيها أحد كعلوم الحيل التى يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والحركات الغريبة ، وجر الثقيل [١] ومعرفة مراكز الأثقال [٢] وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون ، واتخاذ أسلحة عجيبة ، وسهام تنفذ أمداً بعيداً ، ومرايا تحرق[٣] على مسافة بعيدة جدّاً ، ولطف كف لم يسمع بمثله ، ومعرفة بدقائق علم التصاوير وتعاط له بديع ، ولقد رأيته يتناول من مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجرى مجراها فيعبث بها ساعة ثم يدجرحها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره ، او تعمد لها غيره بالآلات المعدّة ، وفى الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتى له مثلها ، وإذا حضر المعارك ، وباشر الحروب ، فإنما هو أسد فى الشجاعة لا يصطلى بناره مع ثبات جأش ، وحضور رأى ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة العساكر والجيوش ، ومعرفة بمكايد الحروب ... وكان يكفى ابن العميد أن يرفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد

---

(١) علم جر الأثقال : علم نتبين منه كيفية إيجاد الآلات الثقيلة ، ومنفعته نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة « كشاف اصطلاحات الفنون » : ٥٣ .

(٢) علم مراكز الأثقال : علم نتعرف منه كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز الثقل حد فى الجسم عنده يتعادل بالنسبة إلى الحامل ، ومنفعته كيفية معادلة الأجسام العظيمة بما هو دونها لتوسط المسافة (المصدر نفسه) .

(٣) علم المرايا المحرقة : علم نتعرف منه أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة والمتكسرة ومواقعها وزواياها ومراجعها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس أشعة الشمس عنها ونصبها ومحاذاتها ، ومنفعته بليغة فى محاصرة المدن والقلاع « المصدر السابق » .

الفرائص ، وتضطرب الأعضاء ، وتسترخى المفاصل »[١] .

هذه صفات ابن العميد الذى قصده التوحيدى آملا أن يجد عنده ما يردّ غائلة الفقر ، ويخفف وطأة الحاجة ، غير أنه لم يجد عنده ما كان يأمل ، ولعل ابن العميد آله اعتداد التوحيدى بنفسه ، واستطالته عليه وهو « صوفى السمت والهيئة »[٢] « غر ، لاهيئة له فى لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء »[٣] وفى ابن العميد « أبهة الفرس وعظمة السلطان » فاحتقره وازدراه فعزم التوحيدى على ثلب ابن العميد والانتقاص من قدره .

ولقد أورد التوحيدى قصةً من شأنها الحط من قيمة ابن العميد ، وإظهاره بمظهر الشحيح الذى يمطل بعطائه ويمن على الأدباء بالوعود ، ثم يحبس الصلات عنهم ، وهى قصة جرت مع الشاعر ابن نباتة السعدى ذكرها التوحيدى فى كتابه « ذمّ الوزيرين » ونقلها ابن خلكان برمتها فى الوفيات[٤] .

لم يجد التوحيدى — إذا استثنينا البخل — منفذاً إلى معايب ابن العميد الخلقية ، ولذا عمد إلى الحط من قدرته البيانية ، وإظهار ضعفه فى النحو واللغة ، وفى ذلك يقول عن لسان ابن ثوابة معلناً تقصير ابن العميد وتخلفه عن الجاحظ فى صناعة الإنشاء : « أوّل من أفسد الكلام أبو الفضل . لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبَّر بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان ، ولا تجتمع فى صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم الأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتيح قلما يملكها أحد ، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد »[٥] .

لاشك فى أن كلام التوحيدى عن ابن العميد كلام موتور مبغض ،

---

(١) « تجارب الأمم » : ٢/٢٧٥ .
(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/٥ .
(٣) « الإمتاع » ١/٥ — ٦ .
(٤) « وفيات الأعيان » : ٢/٥٨ — ٥٩ .
(٥) « الإمتاع » : ١/٦٦ .

حمله حقده على الطعن والإمعان فى الهجاء ، غيرأن هذا الحقد لم يمنعه من الإقرار بفضل ابن العميد ، ولوأدى به الأمر إلى الوقوع فى التناقض وهو القائل عن الوزيرين : « ولولا أن هذين الرجلين أعنى [ابن عبّاد وابن العميد] كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا» ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد . . . ولوأردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثاً فى جميع من كتب للجيل والديلم إلى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد » [1] .

وهكذا نرى أن التوحيدى كان يفىء فى أشد أدوار خصومته إلى الحق وهى مزية وجب الاعتراف بها .

٥ – اتصاله بالصاحب بن عباد :

وفى ٣٦٣ هـ ترك التوحيدى بغداد قاصداً الرىّ مرة أخرى للوقوف بباب الوزير الصاحب بن عباد .

كان الصاحب يتمتع بشهرة عمت أنحاء العالم الإسلامى ، وكان فى بدء أمره من صغار الكتاب يخدم أبا الفضل بن العميد ، فترقت به الحال حتى تولى الوزارة لمؤيد الدولة أبى منصور بويه . وهوأول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب ابن العميد ، يقول ابن خلكان : « رأيت فى أخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته ، كما كان فى حياته غير الصاحب ، فإنه لما توفى أغلقت له مدينة الرى ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدومه فخر الدولة أولاً والقواد ، وقد غيروا لباسهم ، فلما خرج من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة ، وقبلوا الأرض ، وخرقوا عند ذلك ثيابهم ، ولطموا وجوههم ، وبلغوا فى البكاء والنحيب عليه جهدهم ، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياماً » [2] .

(١) « معجم الأدباء » : ٦/٢٣٢ .
(٢) « وفيات الأعيان » : ١/٧٥ .

سمع التوحيدى بكرم الصاحب فقصده « بأمل فسيح ، وصدر رحيب » [١] وهو فى « بقية من غرْب الشباب ، وبعض ريعانه » [٢] فما فاز بطائل فعاد « عاتبًا على ابن عباد ، مغيظاً منه ، مقروح الكبد لما ناله من الحرمان المرّ ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقذْع المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولفظة » [٣] .

ما هى أسباب إخفاق التوحيدى ، وما سبب تجهم الصاحب له عند كل لحظة ولفظة ، وفى باب الصاحب عشرات من الكتاب والشعراء والأدباء أمثال التوحيدى يعيشون فى كنفه ، وينالون من فيضه ويستميحون جدواه .

يمكن ردّ هذه الأسباب المتقدمة إلى عوامل أربعة :

(ا) مدح التوحيدى لابن العميد عدو الصاحب ، حتى صار الناس يعذلونه على ذلك قائلين : « جنيتَ على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير ، وأثنيت عليه وجعلته سيد الناس » [٤] .

(ب) اختلاف نفسيتى الرجلين ، فقد كان التوحيدى شديد الحسد والبغض لذوى الجاه والنعمة « مجبولا على الغرام بثلب الكرام » [٥] حتى عرف بهذه الخصلة الذميمة وشهر بها [٦] ولعله استطال على الصاحب فاحتقره هذا وازدراه جرياً على عادته فى « ازدراء الكبار والصغار » [٧] وقديمًا قيل : التضاغن رائد التباين . ومن الأمثلة اللطيفة على ذلك ما رواه التوحيدى قال : قال لى

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٥/٢٨ .

(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/٢٨ .

(٣) « الإمتاع » : ١/٣ — ٤ .

(٤) « معجم الأدباء » : ١٥/٤٣ .

(٥) « معجم الأدباء » : ٦/١٨٦ .

(٦) كان التوحيدى يخشى فلتات لسانه وثوران طبعه فكان من أدعيته « أعوذ بالله من مدح يصحبه تكلف ، وهجو يطور به تكذب ، وأسأله أن يكفينى حصائد هذا اللسان ، وعرامة هذا الطبع ، وطغيان هذه النفس ، فهو (أسمح) مقصود ، وأكرم مسؤول » (البصائر والذخائر « مخطوط ») .

(٧) « الإمتاع » : ١/٦٠ .

الصاحب يوماً — وهو يتحدث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ فى قبوله : (ولا بدّ من شىء يعين على الدهر) ثم قال : سألت جماعة عن صدر هذا البيت ، فما كان عندهم ذلك . فقلت : أنا أحفظ ذاك ، فنظر بغضب وقال : ما هو ؟ قلتُ : نسيت . فقال : ما أسرع ذكرك من نسيانك ، قلت : ذكرته والحال سليمة . فلما استحالت عن السلامة نسيت . قال : وما حيلولتها . قلت : نظر الصاحب بغضب . فوجب فى حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب . قال : ومن تكون حتى نغضب عليك ! ! [١] .

وكلما حرص التوحيدى على مسايرة الصاحب ، والفوز برضاه ، ازداد هذا تنمراً وتكبراً ، فلا يسع التوحيدى إزاء هذا الصدّ القبيح إلا مجابهته بالأجوبة المسكتة ، فصدق فيه المثل القائل : من ضاق صدره اتسع لسانه . قال التوحيدى : «حضرت مائدة الصاحب ، فقدّمت مضيرة فأمعنت فيها ، فقال لى : يا أبا حيان إنها تضر بالمشايخ ! فقلت : إن رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فعل . فكأنى ألقمته حجراً وخجل واستحيا ، ولم ينطق إلى أن فرغنا» [٢] .

وقد يجنح التوحيدى فى أجوبته إلى التهكم والاستهزاء الخفى ، ومن ذلك ما رواه عن الصاحب أنه سأله يوما : يا أبا حيان ؛ من كناك أبا حيان . قلت : أجلّ الناس فى زمانه ، وأكبرهم فى وقته . قال : ومن هو ؟ ويلك ! قلت : أنت ! قال : ومتى كان ذلك ؟ قلت : حين قلت يا أبا حيان ! فأضرب عن هذا الحديث وأخذ فى غيره على كراهة ظهرت عليه [٣] .

ويظهر أن الصاحب كان « شديد الحسد لمن أحسن القول ، وأجاد اللفظ » [٤] . وكان التوحيدى بحكم صناعته حريصاً على إظهار تفوّقه ، وتمكنه من أساليب البيان ، فكان الصدام مع الصاحب أمراً محتوماً . قال التوحيدى : حدثتُ ليلة بحديث ، فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاده . ثم قيل لى بعد

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٥/٧ .
(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/٧ .
(٣) « مثالب الوزيرين » : ٢٠٤
(٤) « مثالب الوزيرين » : ٣٣٣ .

إنه كان يقول : قاتل الله أبا حيّان فإنه نكد وإنه وإنه . . . وأكره أن أروى ذمى بقلمى ، وكان ذلك كله حسداً وغيظاً بحتاً ، ثم ما ذنبى إذا قال لى : من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف الذى تكتب به إلىّ فى الوقت بعد الوقت . فقلت : وكيف لا يكون كما يوصف ! وأنا أقطف من ثمار رسائله ، وأستقى من قليب علمه ، وأشيم بارقة أدبه ، وأردُ ساحل بحره . وأستوكف قطر مزْنه ، فيقول : كذبت وفجرت ! لا أمّ لك ، ومن أين فى كلامى الكدية ، والشحذ ، والتضرع والاسترحام ، كلامى فى السماء ، وكلامك فى السّماد » (١) .

(حـ) مهنة الوراقة : وهى التى يدعوها التوحيدى «بحرفة الشؤم» وهو لم يهجر بغداد إلى الرى إلا هرباً من مهنة فيها « ذهاب العمر والبصر » . قال التوحيدى : وأما حديثى مع ابن عباد فإنى حين وصلت إليه قال لى : أبو من ؟ قلت : أبو حيان ! فقال : بلغنى أنك تتأدب . فقلت : تأدب أهل الزمان . فقال : أبو حيان ينصرف أو لا ينصرف . قلت : إن قبله مولانا لا ينصرف . فلما سمع هذا تنمر . وكأنه لم يعجبه وأقبل على واحد إلى جانبه وقال له بالفارسية سفهاً على ما قيل لى . ثم قال : الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب . فقلت : أنا سامع مطيع ، ثم إنى قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلا : إنما توجهت من العراق إلى الباب وزاحمت منتجعى هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم ، فنمى إليه هذا أو بعضه أو على غير وجهه فزاده تنكراً . . .

(د) تباين الثقافتين : كان التوحيدى يتفلسف على طريقة المعتزلة ، ميالاً إلى الجدل والأبحاث العقلية بخلاف الصاحب الذى كان « يحبّ العلوم الشرعية ويبغض الفلسفة وما يشابهها من علوم الكلام ، والآراء البدعية » (٢) ولا ريب فى أن اختلاف النزعتين كان يؤجج العداوة بين الرجلين ويجعل سبيلا إلى توسع شقة الخلاف والحقد والكراهية .

---

(١) « مثالب الوزيرين » ٣٢٦ .

(٢) « البداية والنهاية » : ١١ / ٣١٥ . يقول سبط بن الجوزى : «كان الصاحب يبغض من يميل إلى الفلسفة والمنطق » (مرآة الزمان – مخطوط فى المجمع العلمى العربى ورقة ١٤٨) .

أما نهاية العلاقة التي استمرت ثلاث سنوات فهي موضوع روايتين : الأولى للتوحيدى نفسه . قال : « وفى سنة سبعين وثلثمائة فارقت بابه راجعاً إلى مدينة السلام بغير زادٍ ولا راحلة ، ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهماً واحداً، ولاما قيمته درهم واحد، أحمل هذا علىما أردت،ولما نالنى منه هذا الحرمان الذى قصدنى به ، وأحفظنى عليه، وجعلنى من جميع غاشية ورْدِهِ فرداً ، أخذت أملى فى ذلك بصدق القول عنه ، وسوء الثناء عليه ، والبادئُ أظلم»[1].

كان من أثرهذه الخصومة الرسالة التى أنشأها التوحيدى فى مثالب الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد ، والتى أفرغ فيها ما فى نفسه من حقد وضغينة ، وكان فيها من الإقذاع ما جعلها جالبة للنحس والشؤم على من يقتنيها[2] ويعدها متز من أروع آيات النثر العربى ، ومن أحسن ما كتب فى تصوير شخصيات الناس فى القرن الرابع .

والرواية الثانية أوردها الخوانسارى فقال : «كان التوحيدى كذاباً ، قليل الورع وقف الصاحب بن عباد على بعض ما كان يخفيه من ذلك ، فطلبه ليقتله فهرب والتجأ إلى أعدائه ونفق عليهم بزخرفته وكذبه » [3] .

فإذا صحت هذه الرواية فإن العداوة بين التوحيدى والصاحب قد بلغت حداً من الشدة جعلت الصاحب يتهم خصمه بالزندقة ، وهى وسيلة شائعة فى ذلك العصر عمد الناس إليها للتخلص من خصومهم .

٦– العودة إلى بغداد واتصاله بابن العارض :

وفى سنة ٣٧٠ هـ ترك التوحيدى مدينة الرىّ قافلا إلى بغداد حيث مكث فيها حتى عام ٤٠٠ هـ وكاد التوحيدى يقع فى براثن الشقاء لو لم يقيض له القدر رجلا هو أبو الوفاء المهندس البوزجانى (٣٣٦ – ٣٧٦) وكان قد لقيه قبلا فى أرجان

---

(١) « مثالب الوزيرين » : ٢٠٧ .

(٢) يقول ابن خلكان (٢/٦٠) : « وهذا الكتاب من الكتب المحذورة ، ما ملكه أحد إلا وانعكست أحواله ، ولقد جربت ذلك وجربه غيرى على ما أخبرنى من أثق به » .

(٣) « روضات الجنات » : ٢٠٥/٤ .

بفارس ، فتوثقت بينهما عرى الصداقة ، وكان أبو الوفاء من كبار علماء زمانه « بلغ المحل الأعلى فى الرياضيات » [١] وكان أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق إليها » [٢] ويعدّ أبو الوفاء « من كبار مترجمىّ وشراح آثار إقليدس وديوفانتوس وبطليموس » [٣] وله عدّة كتب فى « العدديات ، والحسابيات والفلك » [٤] وقد أسدى أبو الوفاء لصديقه جميلا بأن « جعله فى جملة خدم البيمارستان » [٥] ، ثم وصله بالوزير ابن العارض أبى عبد الله الحسن بن أحمد بن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ هـ ، وزير صمصام الدولة البويهى ، وكان ابن العارض كريماً « يتحلى بالجود ، ويرتدى بالعفو ، ويتأزّر بالحلم ، ويعطى بالجزاف ، ويفرح بالأضياف . . . ويهب الدرهم والدينار كأنه غضبان عليهما ، ويطعم الصادر والوارد كأن الله قد استخلفه على رزقهما ، ثم يتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة والحلع النفيسة ، والخيل العتاق ، والمراكب الثقال ، والغلمان والجوارى حتى الكتب والدفاتر وما يضنّ به كل جواد » [٦] وكان ابن العارض كما تقدّم محبًّا للأدب ، شغوفاً بالعلم ، أحاط نفسه بجماعة من الأدباء والمفكرين منهم : أبو على عيسى بن زرعة النصرانى المتفلسف الذى دأبه « التعظيم والتهويل بأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط » وابن عبيد الكاتب « الكلف بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة » وأبو الوفاء المهندس « الذى لم يقعد به عن المؤانسة الطيبة ، والمساعدة المطربة ، والمفاكهة اللذيذة ، والمواتاة الشهية إلا أن لفظه خراسانى ، وإشارته ناقصة » وغيرهم .

جرت للتوحيدى مع ابن العارض أحاديث أدبية وفلسفية وعلمية ألف منها

---

(١) « تاريخ الحكماء » : ٨٤ .

(٢) « وفيات الأعيان » : ٢/٨٢ .

(٣) A. Miéli : La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale p. 108.

(٤) « الفهرست » : ٣٩٤ .

(٥) أسس هذا البيمارستان عضد الدولة البويهى سنة ٣٦٨ هـ فى الجانب الغربى من بغداد : « تاريخ البيمارستانات فى الإسلام » : ١٨٧ .

(٦) « الإمتاع » : ٣/٢٢٣ .

مادة كتابه المشهور « الإمتاع والمؤانسة » وقد أهدى كتابه إلى أبى الوفاء المهندس اعترافا بفضله وجميل صنيعه .

٧ – شخصيته المزدوجة :

وبالرغم من أننا لم نعرف الشيء الكثير عن حياة التوحيدى ، فإن تحليل آثاره التى وصلت إلينا يساعدنا على كشف جوانب شخصيته إذ « لم يكتب فى النثر العربى بعد أبى حيان ما هو أسهل وأقوى وأشدّ تعبيراً عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان » [١] .

للتوحيدى شخصيتان : شخصية الأديب الذى يصدر فيما يكتب عن الطبع والنوازع الوجدانية معبراً عن ذلك بواسطة نثر فنى منمق ، وشخصية العالم الباحث المؤلف الذى شارك بأنواع المعرفة فى عصره ، واشترك بالمباحثات العلمية ، والمناظرات الفلسفية بنصيب وافر، فدوّنها مؤرخاً بذلك مرحلة من مراحل التطور العقلى والعلمى فى عصره . على أننا لا نجزم فى هذا الصدد أن كلا الشخصيتين الذاتية والموضوعية تظلان واضحتى المعالم ، ظاهرتى الحدود فى جميع ما كتب التوحيدى ، فقد امتزجت الشخصيتان فكان الرجحان على الغالب للناحية الوجدانية ، نجد ذلك حتى فى الأبحاث العقلية المجردة والقضايا المنطقية الفلسفية . وبعد فإن النزعة الوجدانية عند التوحيدى أشد إمتاعا للخيال ، وأكثر علوقاً بالنفس لتعلقها بالحس وارتباطها بالحياة والعواطف الإنسانية الخالدة التى تتجاوب أصداؤها فى نفوس البشر جميعاً .

نحن نجهل العناصر الوراثية ، والعوامل البيئية والاجتماعية التى عملت فى تكوين شخصية التوحيدى ، تلك العناصر الأولية التى يرتكز عليها الباحثون فى دراسة الشخصيات الفذة وتفسير آثارهم ، ولكن يبدو لنا أن التوحيدى كان معتلّ الطبع ذا مزاج سوداوى [٢] ويغلب على صاحب هذا المزاج الحزن

---

(١) « الحضارة الإسلامية » : ١/٤١٦ .

(٢) « للمزاج الخلق تأثير قوى فى بناء الشخصية وتوجيه سلوك المرء وأفعاله ، وقد عنى القدماء بتمييز الأمزجة وتقسيمها ونسبوا إليها أفعال المرء وتصرفاته فى الحياة .

والانقباض اللذان يفضيان به حتماً إلى التشاؤم ، والنظر للعالم من جوانبه الكئيبة المظلمة .

٨ – شقاؤه وعقدته النفسية :

وكأنّ التوحيدى من الأفراد الذين حكمت عليهم المقادير بالشقاء ، ولعلّ من أشد بواعث شقائه أن الطبيعة أودعت نفسه ميلا قوياً إلى التنعيم بالعيش ولذائذه ، ونهماً حافزاً إلى الاستمتاع « بحياة لذيذة » [١] على حدّ تعبيره ، وهو بالرغم من تصوفه إذ هو « شيخ فى الصوفية » [٢] وتظاهره بالزهد والقناعة إذ كان « صوفى السمت ، قبيح الهيئة ، حقير اللبسة » [٣] نزّاع إلى تحقيق رغباته ، والفوز بالغنى والسعادة والجاه لأن « هذه العاجلة – كما يقول – محبوبة ، والرفاهية مطلوبة ، والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوّة مخطوبة ، والدنيا حلوة خضرة ، وعذبة نضرة » [٤] .

ولكن القدر الساخر يأبى إلا أن يجرى على خلاف أمانى النفس ، فعمل على إزعاج التوحيدى ، ووضع العقبات فى سبيله ، مما أدى إلى « اتخاذه الانقباض صناعة »[٥] وصار يتنغص « لبعد مايشتهى وتحرق » [٦] حتى غدا « محدوداً ، محارفاً يتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه »[٧] وكيف لا يشكو صرف الزمان ، وهو يعتقد أنه رجل موهوب ، ذو ذكاء ممتاز ، وملكات متفوقة ، فهو إذن جدير بالسعادة ، قمين بنعم الحياة » . ولما عدل التوحيدى إلى « الزمان يطلب إليه مكانه فيه ، وموضعه منه ، رأى طرفه نابياً وعنانه فى رضاه منثنياً ، وجانبه فى مراده خشناً ، وارتقاءه فى أسبابه نائياً [٨] ، وهكذا قدّر على التوحيدى أن يعيش دهره محروما شقيًّا « يطوى منشور أمله متنزهاً ، ويجمع شتيت رجائه سالياً ، ويدّعى الصبر مستمرًّا » [٩] .

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٥/ ٢٠ .
(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/ ٥ .
(٣) « الإمتاع » : ١/ ٥–٦ .
(٤) « الإمتاع » : ١/ ١٣ .
(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) « معجم الأدباء » : ١٥/ ٥ – ٥٢ .

هذا وإن أكثر ما كان يؤلم التوحيدى ، ويغص عليه عيشه هو الفقر ، والفقر فى نظر رجل كالتوحيدى ، رهيف الأعصاب ، مكدودها ، رقيق الحس ، سريع التأثر والانفعال ، ليس كالفقر فى نظر عامة الناس ، بل الفقر عنده « فكرة رهيبة ، يضخمها خياله التحليلى فيزيدها رهبةً وهولا ، فهى تنطوى على معانى الحرمان والجهد الأليم الذى يتطلبه الحصول على العيش الهنىء المرموق »[1] . والتوحيدى يتحرق أبداً من الفقر حتى غدا فكرة ثابتة شغلت الجانب الأوفى من حياته النفسية ، فظهرت فى كل نفثة من نفثاته وهو القائل : « غدا شبابى هرماً من الفقر ، والقبر عندى خير من الفقر »[2] وقد بلغ من فقره أنه كان لا يظفر بقوته الضرورى ، وأنه عجز عن الحصول على « طمرين للتستر لا للزينة والاختيال »[3] وأنه « يأكل الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوية ، ويلبس القميص المرقّع ، ويتأدم بالخبز والزيتون ، ينفق أربعين درهماً فى الشهر »[4] وأنه « كان لا يفوز بالبلغة من العيش إلا ببيع الدين ، وإخلاق المروءة ، وإراقة ماء الوجه ، وكدّ البدن ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ومض الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان »[5] .

من نتائج هذا الصراع بين نفس التوحيدى المتشوقة إلى النعيم والرفاهية ، وشعوره بالعجز عن تحقيق أمانيه ورغباته ظهور « مركب نقص » كان يدفعه إلى إخفاء نقصه وعجزه بالتعاظم والاستعلاء تارة ، وبالتواضع والتصاغر اللذين يخفيان الحسد والحقد على المجدودين تارة أخرى . فقد يزداد فى بعض ساعات ضجره تبرّماً بالبشر وازدراء لهم ، وشعوراً بالنقص والحقارة فيقول : « والله لربما

---

(١) مرت فترة قصيرة فى حياة التوحيدى حسنت فيها حاله فذاق طعم النعيم واليسر وأشبع فيها غريزة التملك ، فقد جاء زمن ملك فيه منزلا وذهباً وأثاثاً وجارية ولكن سرعان ما عدت الحوادث فسلبته ما كان «ادخره من تراث العمر» وأرجعته إلى ما كان عليه من الإملاق « الإمتاع» : ٣/١٦١–١٦٢.

(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/٢٣ .

(٣) « الصداقة والصديق » : ٥ .

(٤) « الإمتاع » : ٣/٢٢٧ .

(٥) « الإمتاع » : ٣٢/١٤ .

صليت فى الجامع ، فلا أرى إلى جنبى من يصلّى معى ، فإن اتفق فبقتّال أو عصّار أو نداف أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنانه وأسكرنى بنتنه ، فقد أمسيتُ غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعًا بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازمًا للحيرة ، متحملا للأذى ، يائسًا من جميع من أرى »[١] .

يمثل التوحيدى حالة التغالب بين الذكاء والإرادة ، أو بين الذكاء والعمل ، والمعروف أن الأذكياء والنبغاء هم فى الغالب أبعد الناس عن الفوز فى الحياة الكفاحية العملية ، والاهتداء إلى سبل النجاح فيها وتحصيل أمور الدنيا ، لأن توسع الذكاء يضعف الإرادة ، وحياتنا العقلية كحياتنا العضوية مبنية على التكافؤ والتناسب فى الملكات والمواهب والقوى الجسمية والروحية ، فكما أن فى تقوية إحدى الجوارح إضعافًا لغيرها ، فإن فى توسع الذكاء وإعمال القوى المفكرة تعطيلا للإرادة وخلقًا للعجز والتردد ، وذلك أن الأذكياء تتكشف أمامهم وجوه نظر كثيرة ، وحلول كثيرة للمسائل والأحوال العارضة ، وقد تكون هذه الحلول متعاكسة أو متناقضة ، والعمل المجدى يقتضى الاكتفاء بحل واحد ، غير أن إهمال الحلول الباقية تعتبر فى نظر الذكى حطة وامتهانًا لذكائه فيصبح إذن عرضة للتردد ، عاجزاً عن الانتخاب والتنفيذ ، متأرجحاً بين الحركة والإيجاد ، وبين الاغتباط بالتفكير والتصورات ومداعبة الأحلام . ولذا فإن التوحيدى الذى « أنس بالوحدة ، وقنع بالوحشة ، واعتاد الصمت ، ولزم الحيرة ، واحتمل الأذى ، ويئس من جميع الخلق ، وانتحل القناعة رياضة »[٢] والذى أصبح « حب السلامة غالبًا عليه ، والقناعة بالطفيف محبوبة عنده »[٣] رأى — أن « العجز غالب لأنه مبذور فى الطينة »[٤] وهذا ما يفسر عجزه وفشله فى الحياة .

٩ — حقده على الناس وتشاؤمه :

كان من نتائج هذا كله أن أصبح التوحيدى فريسة للغيظ والحسرة لعدم

---

(١) « الصداقة والصديق » : ٦ .
(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/٣٧ .
(٣) « الإمتاع » : ١/١٠٤ .
(٤) « معجم الأدباء » : ١٥/٤٨ .

تمكنه من التمتع بالحياة قبل فوات الأوان ، ألم يقل إن العمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة ، والفرص بروق تأتلق ، والأوطار فى غرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق » [١] . ولذا اشتد حسده لذوى اليسار والنعم ، وقويت كراهيته للناس ، ورغبته للنيل منهم والتشنيع عليهم حتى باتوا وهم فى نظره « سباع ضارية ، وكلاب عاوية ، وعقاب لسّاعة ، وأفاع نهاشة » [٢] والعالم بعد فى نظره شرّ كله يسكنه عتاة ظالمون ، نضبت قلوبهم من الرحمة فلا يرجى منهم خير ، «فالشر مقبل والخير مدبر » [٣] ومع أن الحياة لم تهب التوحيدى شيئاً من مباهجها ومسراتها ، فقد ظلّ شديد اللهفة والحنين إليها ، والتعلق بها حتى فى أشدّ أدوار كهولته وضعفه وعجزه ويتجلى ذلك فى عبارته : « وبعد فقد أصبحت فى هامة اليوم أوغد ، فإنى فى عشر التسعين ، وهل بعد الكبرة والعجز أمل فى حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديد » [٤] وهو بهذه الجملة يفصح تمام الإفصاح عن رغبته التى سعى طوال حياته وراءها ، فلم يتمّ له ما أراد وبقيت حسرة فى نفسه حملها معه إلى اللحد .

كان تشاؤم التوحيدى إذن وليد المزاج والتجارب ، وكان للشذوذ والكبرياء أثر فى دعم هذا التشاؤم — والأديب الموهوب الذى وهب نفسه لأدبه وصنعته يعيش فى عالم خاص مهملا أحداث المجتمع الذى يعيش فيه ، كلما استغرق الأديب فى انعزاله ووحدته بعد عن الواقع ومقتضياته ، ومن هنا نشأ كره الناس للنبغاء والعباقرة لخروجهم عن المألوف ومخالفتهم أذواق معاصريهم وتقاليدهم واصطلاحاتهم ، ومجابهتهم بما لا يستسيغون ولا يفهمون . ومن الحقائق النفسية المقررة أنه إذا رافقت النبغاء أحوال مادية ومعنوية سيئة فى حياتهم ، استحالت عواطفهم المكبوتة مع مرور الزمن إلى بغضاء ومرارة وحقد على الأحياء ، ونفرة من المجتمع ، فاعتصموا بالماضى ، واتخذوا الإشادة بذكره ذريعة للحط من قيمة

(١ ، ٢) « الإمتاع » : ١/٣٦ .

(٣) « الصداقة والصديق » : ٦

(٤) « معجم الأدباء » : ١٥/١٦ .

الحاضر والزراية به . والتوحيدى كما نعلم كان شديد الاعتداد بأدبه ومواهبه ، يتألم من جهل معاصريه ، واستخفافهم بقدره ، لم يجد مناصاً من اللجوء إلى العزلة والانكماش ، وصاحبهما أبداً موضع سوء الظن والريبة عند الناس ، لأن شذوذه كان يمنعه من مخالطتهم بشكل سوى ، واستطابة معاشرتهم ، ولأن تصوراته كانت تحجب عنه أوضاع الأمور فى شكلها الحقيقى الواقعى ، فبعدت الشقة بينه وبين معاصريه ، وتعذر التفاهم بينهما ، فطفق التوحيدى يأسف على الماضى الحاوى لكل محمدة ، ذاماً الحاضر الحاوى لكل نقيصة .

١٠ – اليأس والقنوط :

إن التوحيدى الذى قضى عمره بالأسى « والتحسر على فوت المأمول بعد المأمول ، يأكل إصبعه أسفاً ، ويزدرد ريقه لهفاً »[١] « متبرحاً بطول الغربة ، وشظف العيش ، وكلب الزمان ، وعجف المال ، وجفاء الأهل وسوء الحال »[٢] ، والذى كان عرضةً للقنوط والتهيج والمضايقة ، مزّق فى سورة غضب كتبه التى أفنى عمره فى تسويدها وأحرقها لقلة جدواها ، وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته . ولما كتب إليه صديقه القاضى أبو سهل على بن محمد يلومه على فعلته أجابه التوحيدى معتذراً عن ذلك برسالة مؤثرة[٣] .

إن لهذه الرسالة التى كتبها التوحيدى فى أشد ساعاته حرجاً قيمةً كبرى فى فهم نفسيته فى أواخر حياته ، والتوحيدى شأنه فى كل ما كتب أن يجيد التعبير عن عواطفه والإفصاح عن نزعات وجدانه بلهجة توجب الرأفة وتدعو إلى الإشفاق ، فهو يصف فى رسالته هذه ما قاساه عند ما « بلغت شمسه رأس الحائط »[٤] من أوهام الشيخوخة وخيبتها وآلامها ، وفى هذا الدور الأخير من عمر الإنسان

---

(١) « الإمتاع » : ١/ ٧ .

(٢) « معجم الأدباء » : ١٥/ ٣٨ .

(٣) يقول ياقوت : « إن هذه الرسالة كتبت سنة ٤٠٠ هـ وهو الدور الأخير من حياة التوحيدى ». اطلبها فى فصل المنتخبات من هذا الكتاب .

(٤) « الصداقة والصديق » : ٤٦٩ .

الذى تنكشف فيه الحياة على حقيقتها وتنهار الآمال والمطامع ، تأخذ القوى الحيوية بالتناقص فالنضوب منذرة بالانحلال والاقتراب من النهاية ، فتجنح النفس إلى الكآبة والسأم وحب العزلة والانفراد ، كان التوحيدى فى كهولته « يستعين الله على كل ما همّ النفس ، ووزع الفكر ، وأدنى من الوسواس » كل ذلك لما كان يجده من « انكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتعاود العلل عليه ، وتخاذل الأعضاء منه ، فقد كلّ بصره وانعقد لسانه ، وجمد خاطره ، وذهب بيانه ، وتملكه الوسواس ، وغلب عليه اليأس من جميع الناس »[1] .

١١ — وفاته :

منذ سنة ٤٠٠ للهجرة حتى وفاته لم نعثر للتوحيدى على أثر ، ونعلم يقيناً أنه مات سنة ٤١٤ كما سيجىء ، فأين قضى التوحيدى مدة أربعة عشر عاماً ؟

أطوّف فى البلاد « متنقلا من بلد إلى بلد يقف على الأبواب »[2] شأن المكدين من طائفة « الساسانية »؟[3] أم كان يعيش منزوياً « يخالط الصوفية والغرباء ، والمجتدين الأدنياء الأردياء »؟[4] أم « جاور بيت الله الحرام »؟[5] أم

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٥/٢٤ .

(٢) الإمتاع : ٣/٢٢٧ .

(٣) كان التوحيدى « عمدة لبنى ساسان » (معجم الأدباء ١٥/٥) . وبنو ساسان جماعة من المتسولين تنتسب إليهم الكدية . وقد اختلفت الآراء فى نشأتهم وعلل الأستاذ الإمام محمد عبده هذه التسمية فقال : « إن الساسانية وبنى ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان ، وأنه جد السفلة وشيخهم إنما جاءت بعد زوال الدولة الساسانية التى أسسها أردشير بن بابك ، فلما محقها الإسلام وبقى بعض أفرادها سقطوا فى ألسنة فتيان المسلمين الأولين ، فكانوا يطردونهم من مكان إلى مكان ، ويعيرونهم بعنوان آبائهم ، فبعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب ، صارت نسبة قذف وسب . وكان فى إشهار هذا الاسم بالتحقير غاية سياسية فضلا عما تطمح إليه نفس الغالب من إذلال المغلوب ، وهى ألا يبقى للدولة الساسانية ذكر فى لسان ولا أثر فى جنان ينبئ عن سلطانها أو رفعة شأنها ، وإذا خطر أمرها بالبال فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة ثم نسى ذلك بمرور الأيام ، وبقى اللفظ مستعملا فى الشحاذين وهم أدنى طبقة فى الناس » (شرح مقامات الهمذانى ص ٩٧) .

(٤) « الامتاع » : ١/٧ .

(٥) « شد الإزار » : ٥٤ .

رجع إلى شيراز حيث نوى الإقامة بقية حياته بعد أن طوّف طوال حياته بالعراقين والحجاز وفارس والجبل . تلك هى نقاط هامة فى حياة التوحيدى يقف عندها المؤرخ حائراً عاجزاً، وإذا كان لا بد من الترجيح فنحن نقول : إن التوحيدى قضى القسم الأخير من حياته فى شيراز حيث مات ودفن فيها كما يؤيد ذلك :

١ — نص « شد الإزار »[١] الذى يؤرخ وفاة التوحيدى سنة ٤١٤ ودفنه بشيراز . قال الجنيد مؤلف الكتاب : « كان بين أبى حيان وبين شيخ الشيوخ أبى الحسين[٢] شىء ، فلما مات أبو حيان قال شيخ الشيوخ أبو الحسين : رأيته فى المنام فقلت : ما فعل الله بك . قال : غفر لى على رغمك، فلما أصبح أمر شيخ الشيوخ أصحابه فحمل فى محفة إلى قبره ليصلى عليه ، فزاره وأمر بلوح كتب عليه : هذا قبر أبى حيان التوحيدى فوضع على قبره ، توفى سنة أربعة عشرة وأربعمائة ودفن فى المقبرة المحاذية للشيخ » .

٢ — وجود أبى سعد عبد الرحمن بن محجة الأصفهانى فى شيراز سنة ٤٠٠ هـ وحضوره دروس أستاذه التوحيدى فيها كما يقول السبكى[٣] .

٣ — وجود أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف على الشيرازى فى شيراز وسماعه التوحيدى[٤] ، وأبو إسحاق هذا كان قد ذهب إلى شيراز سنة ٤١٠ هـ طلباً للعلم، ثم عاد إلى بغداد سنة ٤١٤ هـ أى بعد وفاة التوحيدى كما جاء فى وفيات الأعيان[٥] .

---

(١) هو الكتاب المعروف بهزار مزار لمعين الدين أبى القاسم جنيد العمرى الشيرازى ، وهو يتضمن أخبار الأعلام الذين دفنوا فى مدينة شيراز ، وقد طبع قسم من هذا الكتاب فى لندن سنة ١٩١٩ بعناية المستشرق الإنكليزى دنيسن روس ، واليوم يقوم على طبعه من جديد السيدان عباس إقبال ومحمد قزوينى فى طهران ولما ينتهيا من طبعه ، وقد تفضل السيد إقبال فأعارنى ترجمة التوحيدى .

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن جعفر أبو الفتح الصوفى البيضاوى المعروف بابن سالبة المتوفى سنة ٤١٥ هـ .

(٣) « طبقات الشافعية » : ٤/٢ — ٣ .

(٤) « لسان الميزان » : ٦/٣٧٣ .

(٥) « لسان الميزان » : ٦/٣٧٣ .

هذا ما عثرنا عليه فى تحديد زمن وفاة التوحيدى ومكانها ، وقد وصف أبو سعد المطرّز ، نقلا عن فارس بن بكران الشيرازى — وكان من أصحاب التوحيدى — الساعات الأخيرة من حياة صاحبه فقال : « لما احتضر أبو حيّان كان بين يديه جماعة فقال : اذكروا الله فإن هذا مقام خوف ، وكل يسعى لهذه الساعة ، وجعلوا يذكرونه ويعظونه ، فرفع رأسه إليهم وقال : كأنى أقدم على جندى أو شرطى ، إنما أقدم على ربّ غفور ، وقضى »[1] .

(١) « لسان الميزان » : ٦/٣٧٣ .